الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة
كلية الآداب واللغات

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي
قسم اللغة والأدب العربي

شهادة مشاركة

تمنح هذه الشهادة للمحترم (ة) السيد (ة): **عبد العزيز تواتي ـ جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة.**

تقديرا لمشاركته (ا) في الملتقى الدولي الأول: **بلاغة القرآن ـ بحث في الأبعاد العلمية والتربوية.**

في 02-03 أكتوبر 2023

بمداخلة بعنوان: **دلالات التناسب الصوتي في القرآن الكريم.**

رئيس الملتقى	عميد الكلية	مدير المخبر	رئيس القسم
د. جميلة عبوب	عميد كلية الآداب و اللغات د. عثمان دواش	رئيس مخبر الدكتور: نبيس بوحسين	الأستاذ: عمار مقلم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 20 أوت 55 سكيكدة
كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي مخبر التراث الأدبي الجزائري

استمارة المشاركة في الملتقى الدولي الأول:

بلاغة القرآن

بحث في الأبعاد العلمية والتربوية.

بتقنية التحاضر عن بعد وحضوريا

الاسم: عبد العزيز اللقب: تواتي

الرتبة العلمية: أستاذ محاضر (أ) الوظيفة: أستاذ

الهاتف: 0697019757 البريد الإلكتروني: azizaziztouati@gmail.com

المؤسسة: جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة

المحور: بلاغة الصوت في القرآن الكريم: قراءة في تأثيرية الصوت والإفادة.

عنوان المداخلة: دلالات التناسب الصوتي في القرآن الكريم

ملخص المداخلة:

ظهر الإعجاز القرآني أكثر ما ظهر في بلاغته، وإن تعددت وجوه إعجازه فبلاغته أوضح شيء فيه، إذ هو من حسن الرصف وقوة السبك وروعة الانسجام وبديع التأليف وتلاؤم اللفظ والمعنى بحيث لا يخفى على من له أدنى بصيرة باللغة، بله الضليع بها والمدرك لأسرارها، ولقد تميز القرآن بظاهرة جعلته يتبوأ أعلى درجة في الفصاحة والبيان، وهي ظاهرة التناسب، فألفاظه يناسب بعضها بعضا، وكذلك معانيه، من جهة، ومن جهة أخرى فالألفاظ تناسب المعاني أيضا تناسبا دقيقا، بحيث إذا تغير لفظ ـ ولو كان صوتا ـ أدى ذلك إلى اختلال في المعنى.

على ضوء ما سبق تأتي هذه المداخلة لتميط اللثام عن أهمية التناسب على المستوى الصوتي في القرآن، من خلال علاقات التجاور داخل التركيب، ومن خلال التدخل في توجيه الدلالة أيضا.

مقدمة:

يتميز النص القرآني بظاهرة التناسب التام بين وحداته وأجزائه، بحيث إذا تغير حرف من حروفه إلى نظيره أو كلمة إلى مرادفها وقع الخلل في ذلك التناسب، وهذه ظاهرة لا يمكن أن تتحقق في النصوص الأخرى، لأنها من صنع البشر.

والتناسب في القرآن يقع على مستويات عديدة، في إطار علاقات التجاور والترتيب، ومن هذه المستويات: المستوى الصوتي، إذ يقع التناسب بين أصوات الكلمة الواحدة أو أصوات الكلمات المتجاورة، ومن هنا ينبثق التساؤل التالي: هل يرد التناسب الصوتي اعتباطيا؟ أم يتدخل في توجيه الدلالة؟

وللإجابة عن هذا التساؤل جاءت هذه المداخلة مجزّأة إلى فرعين أساسيين: الأول بعنوان "دلالة الصوت القرآني"، ويمثل مقاربة بسيطة لموضوع ارتباط الصوت بالدلالة وتطبيقه في القرآن الكريم، والثاني بعنوان: "التناسب الصوتي في القرآن ودلالاته"، وفيه ضربنا أمثلة عديدة عن التناسب الصوتي الذي تتعدد مظاهره بين تكرار الصوت وزيادته وحذفه وإبداله، لنخلص في الأخير إلى جملة من النتائج المجيبة في حوصلتها عن التساؤل المطروح.

دلالة الصوت القرآني:

يتميز القرآن بنظام صوتي بديع، يُراعى فيه التناسب بين الأصوات من جهة، وتُراعى فيه الدلالة من جهة أخرى، ولا يتفق هذا الجمع بين الأمرين إلا للقرآن، فلا يمكن أن يأتي بهذا الاتساق والنظام أحد من البشر، فهو اتساق عجيب، ليس له نظير في كلام الأولين من العرب ولا الآخرين.

ويرتبط الصوت بالدلالة في اللغة عموما، كما تنص بذلك نظرية المحاكاة لأصوات الحيوان والطبيعة، وكما قرره بعض علماء العرب القدامى، كابن جني الذي عقد بابا في كتابه "الخصائص" سماه: باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، حيث يقول فيه:«ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع. وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أو الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب»[1]، فهم لا يراعون اختيار الحرف ليناسب الدلالة فحسب، وإنما يراعون حتى ترتيب حروف الكلمة ليناسب ترتيب الأحداث

التي تعبر عنها الكلمة، فالصوت في اللغة إذن ـ ولا سيما العربية ـ أشد ما يكون تعلقا بالمعنى، وهذا في العربية، فكيف به في القرآن؟

ولكي ندلل على تعلق الصوت القرآني وصفته بالمعنى يكفي أن نضرب أمثلة على ذلك، منها حرف الميم الذي يدل على معنى الجمع ويقتضيه، وكما يدل عليه مخرجه، من جمع الشفتين وضمهما[2]، وفي الآيات الأولى من سورة القيامة نجد الفواصل التالية: القيامة، اللوامة، عظامه، بنانه، أمامه، القيامة، ومع عدم اعتبار هاء السكت، تنتهي هذه الفواصل جميعا بحرف الميم، عدا (بنانه)، والنون والميم أختان قريبتان وكلاهما فيه غنة، وما أكثر ما تجمع بينهما العرب في القوافي[3]، فبالنظر إلى المعاني العامة لهذه الآيات نجد معنى الجمع متحققا فيها، فيوم القيامة هو يوم الجمع، وذكر الله تعالى في الآيات جمع عظام الإنسان، وتسوية بنانه، ولا يخفى معنى الجمع في معنى التسوية.

ومن ذلك أيضا حرف التاء وحركة الضم في فواصل الآيات الأولى من سورة التكوير: كُوّرت، انكدرت، سُيّرت، عُطّلت، حُشرت، سُجّرت، زُوّجت، سُئلت، قُتلت، نُشرت، كُشطت، سُعّرت، أُزلفت، أحضرت، إذ تنتهي هذه الفواصل بحرف التاء الذي هو من حروف الشدة، وهي شدة تناسب شدة الموقف المعبّر عنه في جميع هذه الآيات، كما تزيد حركة الضم من وضوح هذا التناسب، إذ الضم أقوى الحركات وأشدها.

هذا من حيث دلالة الصوت في الفاصلة، أما دلالة الصوت في غيرها فمن أمثلته قوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ) [التوبة 38]، فالتشديد في كلمة (اثاقلتم) هو ما يقدم المعنى الدقيق لحال أولئك القاعدين عن الجهاد، وفي ذلك يقول سيد قطب: «يتصور الخيال ذلك الجسم المثاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل. إن في هذه الكلمة طنا من الأثقال ! ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقل برسمها»[4]، ومن صفة حرف الثاء أنه لثوي، وما دام في الكلمة مشددا فهذا يجعل اللسان عالقا بأطراف الأسنان، وهذا يشبه حال المتخلفين عن الجهاد، وحبهم للقعود، كأنهم علقوا بالأرض دون حراك منهم[5].

ومن ذلك قوله تعالى: (فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾) [الشعراء 94]، فـ «معنى "كبكبوا" كُبّوا فيها كبا بعد كب، فإن "كبكبوا" مضاعف كبوا بالتكرير وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى»[6]، ويقول

الزمخشري في هذا: «والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها»[7] والعياذ بالله.

ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى: (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾) [الغاشية 13]، فالضمات في كلمة (سرر) هي أبعاض حرف المد: و، والواو تدل « على الظهور والارتفاع فهي جامعة لأنها عن غلظ الصوت وارتفاعه بالشفة معا إلى أبعد رتبة في الظهور»[8]، والضمة علامة الرفع كما هو معلوم، والسرر من صفتها أنها مرفوعة، فناسبت حركات الضّم المتوالية صفة السرر، فالسرر مرفوعة بصفتها المقررة، ثم بدلالة حركة الضم عليها، فما أبدع هذا التناسب !

التناسب الصوتي في القرآن ودلالاته:

نسعى في هذا الجزء من المقال إلى الوقوف على خاصية التناسب بين الأصوات على مستوى الكلمة الواحدة أو على مستوى الكلمات المتجاورة، ومن ثم نستخلص الدلالة من هذا التناسب الذي لم يأت اعتباطيا، بل جاء لحكمة أودعها الله تعالى فيه، من خلال شواهد متعددة على ذلك، وينبغي قبل ذلك الإشارة إلى أن التناسب بين الأصوات يقتضي الالتئام والانسجام بين الحروف، فينتفي بذلك أي نطق أو عسر في التلفظ، ويكتسي الكلام به نظاما وانسيابا لعله هو ما عناه الوليد بن المغيرة أحد زعماء قريش في الجاهلية بقوله عن القرآن: " إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة".

ومن أجل ذلك نصنف تلك الأمثلة ونجمع أصنافها تحت عناوين معبرة عن ظواهر لغوية صوتية هي: تكرار الصوت، وزيادته، وحذفه، وإبداله، كما يلي:

تكرار الصوت:

التكرار ظاهرة صوتية معروفة، من شأنها أن تحدث جرسا موسيقيا ونغما صوتيا، شريطة ألا يكون معيبا، ومعيار ذلك هو ما يقدمه التكرار من فائدة دلالية، فإن عَدِم هذه الفائدة صار التكرار عيبا في الكلام، وفي القرآن شيء كثير من التكرار، عُرف نوعٌ منه في علوم القرآن باسم المتشابه، ألف فيه كثير من العلماء، وهو يقع في أعلى مستوياته بتكرار آية كاملة، لكنّ الذي يعنينا هنا هو تكرار الصوت على مستوى الكلمة الواحدة أو على مستوى كلمات متجاورة، وفيما يلي أمثلة عنه نوردها مع استنباط الدلالة من التكرار الموجود فيها:

• قوله تعالى: (ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩) [الواقعة 69]، فهنا تكرار لحروف النون والزاي والميم، في كلمات: أنزلتموه، المزن، منزلون، ولا يخفى ما أحدثه هذا التكرار في الحروف من نغم صوتي، وتناسب لفظي، فقد اختيرت لفظة (مزن) من بين مرادفاتها: سحب، غمام، غيم، لأنها تشتمل على حروف تناسب ما قبلها وما بعدها، بواسطة التكرار، كما أن المزنة وهي واحدة المزن «السحاب الأبيض خاصة، وهو أعذب الماء»[9]، فأشبهت عذوبة الكلمة عذوبة الماء المنزل المشروب، إذ قال عز وجل قبل هذه الآية: (أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨)، كما أن تكرار الأصوات في الآية يشير إلى تكرار نزول الماء من السماء، لحاجة الإنسان إليه في حياته.

• قوله تعالى: (فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ) [آل عمران 185]، فتكرير الصوت في كلمة (زحزح) يدل على تكرير الفعل، يقول الزمخشري: «الزحزحة: التنحية والإبعاد تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة»[10]، فيتكرر الجذب بعجلة كما يتكرر الصوت في الكلمة.

والأفعال المضعفة الواردة في القرآن كلها على هذه الشاكلة، كالزلزلة الدالة على تكرر الحدث، ومثل: دمدم، كبكب، مذبذب، حصحص، صرصر، عسعس، وسوس.

• كل ما وقع في القرآن من التجنيس فقد وقع فيه تكرير للصوت، وهذا التكرير للأصوات في الكلمتين المتجانستين مُحدثا بينهما تناسبا لفظيا، يُسمى عند علماء البديع محسنا بديعيا لفظيا، ووقوع التجانس في كل موضع من القرآن لا بد أن للدلالة علاقة به، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: (وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ) [الأنعام 26] ، فالكلمتان المتجانستان: ينهون وينأون، تشكلان تناسبا صوتيا يسمى جناسا غير تام، فتكاد الحروف بينهما تتطابق، كتطابق أفعال الكفار وأقوالهم، فهم ينأون عن الحق بأفعالهم، وينهون عنه بأقوالهم، يقول ابن كثير رحمه الله: «المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن، وينأون عنه أي: ويبتعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يتركون أحدا ينتفع»[11].

زيادة الصوت:

في القرآن الكريم زيادات لبعض الأصوات، ولا سيما في الفواصل، تحقيقا للتناسب اللفظي أولا، ثم إشارةً إلى معنى قريب أو بعيد ثانيا، وفيما يلي أمثلة عن ذلك:

• زيادة التنوين:

قوله تعالى: (إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلَا وَسَعِيرًا ۝٤) [الإنسان 04]، فقد زيد التنوين لكلمة سلاسل، وحقها ألا تنون، فهي ممنوعة من الصرف لشبه صيغتها بصيغ منتهى الجموع، وزيادة هذا الصوت في الكلمة إنما هو ليناسب التنوين فيما بعده من الكلمات المعطوفة عليها: أغلالا، سعيرا، فهذا تناسب صوتي، سماه بعضهم إتباعا، يقول أبو البقاء العكبري: «ونوّنه قوم أخرجوه على الأصل، وقرّب ذلك عندهم شيئان: أحدهما إتباعه ما بعده، والثاني أنهم وجدوا في الشعر مثل ذلك منونا في الفواصل»[12]، كما يقول الألوسي في تفسيره: «والوجه أنه لقصد الازدواج والمشاكلة فقد جوزوا لذلك صرف ما لا ينصرف»[13]، فهذا من حيث التناسب اللفظي، أما من حيث دلالته فيشير الإمام البقاعي إلى أن التنوين في قراءة من نوّن يشير إلى عظمة السلاسل التي أعدّها الله عز وجل للكافرين وضخامتها[14].

• زيادة حرف الألف:

قوله تعالى: (وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَاْ ۝١٠) [الأحزاب 10]، وقوله أيضا من نفس السورة: (وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ ۝٦٧) [الأحزاب 67]، فزيد في الفاصلة هنا ألف لأجل التناسب الصوتي، يقول الزركشي معللا ذلك: «لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على التنوين ألف لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل»[15]، وأما دلالات هذه الزيادة فيحدثنا عنها الدكتور محمد أبو موسى مؤكدا على أهمية السياق بقوله: «وبيان ذلك أننا حين نقول: أن القرآن يحرص على توافق التنغيم الصوتي، لا ندعي أن ذلك دائما وإنما يحدث عندما يقتضيه السياق ولذلك نراه واقعا في الآيات التي تصف أحداثا أو شعورا أو أفكارا من نوع متوهج على اختلاف الدرجة في ذلك، ومن هنا يجيء قوله: (وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ)، أسلوبا رزينا هادئا هدوء الحق الراشد إلى الصراط المستقيم، أما قوله: (وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَاْ ۝١٠)، فإنها

جاءت في موقف عنيف، كله حركة واضطراب، وانفعالات موارة بلغت فيها القلوب الحناجر، وكأن الموقف يكاد ينفجر لولا هذا الانطلاق وهذا الامتداد في تلك الألف التي أفرغت من توتر الآيات قدرا استوى به نسق الأسلوب...أما قوله: (فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾)، فإنها صيحة قوم تتقلب وجوههم في النار»[16].

• زيادة هاء السكت:

قوله تعالى: (وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾) [القارعة 10]، فالأصل: ما هي؟ وزيادة الهاء يقول عنها الزركشي: «هذه الهاء عدلت مقاطع الفواصل في هذه السورة، وكان للحاقها في هذا الموضع تأثير في الفصاحة»[17]، كما يرى ابن عاشور أن الهاء جُلبت من أجل تخفيف اللفظ عند الوقف[18]، هذا من حيث التناسب الصوتي، وأما من حيث الدلالة فإن الإمام البقاعي يقول: «وهاء السكت إشارة إلى أن ذكرها مما يكرب القلب حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام، أو إلى أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام عنها سمعه فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت ويصغي غاية الإصغاء»[19]، وهكذا تؤدي هاء السكت وظيفتها الدلالية.

حذف الصوت:

أحيانا يحذف صوت من أصوات الكلمة في القرآن ليحقق تناسبا لفظيا ما، وأكثر هذه الأصوات حذفا هو الياء، وفيما يلي أمثلة عن حذف الصوت مع ذكر الدلالة من هذا الحذف:

• قوله تعالى: (وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾) [الفجر 09]، فحذفت الياء من كلمة: الوادي، والظاهر أن حذفها كان مراعاة لانسجام الفواصل السابقة: عاد، العماد، البلاد، فتناسبها فاصلة الوادي بدون ياء، فهذا ما حققه الحذف من التناسب الصوتي، أما الدور الدلالي الذي يؤديه الحذف ـ بالنظر إلى قدرة ثمود وقوتهم ـ فهو « إشارة إلى صعوبة عملهم وتكلفهم فيه، فلو مدت مسترسلة لأوهمت سهولة ما فعلوا، والمراد تخويف الكفار بما حل بمن هم أعظم منهم قدرة»[20]، وكذلك فحرف الدال من صفته الشدة، ينحبس جريان الصوت عند النطق به، والشدة من صفات القوة، لذلك حُذفت الياء

للوقوف عند الدال، بدلا من الوقوف عند الياء التي هي حرف رخو، ويكون ذلك متناسقا مع معنى الآية، متناغما مع سياقها الذي كان عن قوة ثمود في قطعهم للصخور ونحتها، والله أعلم.

• قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾) [الزمر 17]، فحذفت الياء من (عبادي)، وروعي في ذلك تناسق الفواصل الموالية: الألباب، النار، الميعاد،...التي وردت بدون ياء، أما الدلالة من الحذف فيرشدنا إليها الدكتور فاضل السامرائي بقوله: «إنه قيد العباد بالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. فهم لم يكتفوا بالحسن، بل يتبعون الأحسن، ولا شك أن هؤلاء قلة. ثم ذكر أن هؤلاء هم الذين هداهم الله، وأنهم أولو الألباب. فحذف الياء لقلة المذكورين نسبيا»[21]، إذن دلالة حذف الياء هي قلة العباد الموصوفين في الآية، فكأن النقص في حروف الكلمة يقابله نقص في العدد.

إبدال الصوت:

يحدث في القرآن أن يتغير حرف إلى حرف آخر، لتناسب صوتي من جهة، ولإضافة دلالية من جهة أخرى، وفيما يلي أمثلة عن ذلك:

• إبدال الياء ألفا في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: (يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ) [يوسف 84]، فالأصل في يا أسفى: يا أسفي، ويفسر الزجاج هذا الإبدال بعلة التخفيف، يقول: «"يا" الإضافة يجوز أن تبدل ألفا لخفة الألف والفتحة»[22]، ونلاحظ توسط هذه الألف المبدلة بين ألفيْ مدّ هما: ألف حرف النداء "يا"، وألف حرف الجر "على"، فهي تجانسهما وتناسبهما صوتيا، أما الدلالة من الإبدال فإن المد في ألف الإطلاق المبدلة أنسب شيء لذلك الحال الذي أصاب يعقوب من حزن تصاحبه تنهدات وتأوهات، ومثل يا أسفى: يا ويلتى، يا حسرتى، وكلها وردت في القرآن.

• إبدال الميم باء في قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾) [آل عمران 96]، فأبدلت ميم "مكة" باءً لتناسب حرف الجر قبلها في الآية وتجانسه، وأما الدلالة فقد جاء في لسان العرب: «بكّ فلان يبك بكة أي زحم. وبك الرجل صاحبه يبكه بكا: زاحمه أو زحمه»[23]، وبالنظر إلى سياق الآية نجد الحديث عن الحج الذي يحدث فيه الزحام في الطواف وسائر النسك،

فوافق إبدال الميم باء السياق المعنوي للآية التي وردت فيها كلمة (بكة)، وهذا بخلاف ورود كلمة (مكة) دون إبدال في قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ) [الفتح 24]، فهي ليست في سياق الحج بل في سياق صلح الحديبية.

• إبدال الواو ياء والضمة كسرة في قوله تعالى: (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾) [مريم 69]، فالأصل في عتيا: عتوا، فأبدلت ضمة العين كسرة، وضمة التاء كسرة، وتبعا لذلك أبدلت الواو ياء، وذلك حتى تناسب الفواصل السابقة واللاحقة: سميّا، حيّا، شيئا، جثيّا، عتيّا، صليّا، مقضيّا...، فالتناسب الصوتي واضح هنا، وهو انسجام الفواصل، ولأجله تمّ الإبدال، وأما من حيث الدلالة فمن المعلوم أن "عتوّا" أثقل لفظا من "عتيا"، لثقل الواو والضمة مقارنة بالكسرة والياء، وقد وردت "عتوا" في القرآن في قوله تعالى: (۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾) [الفرقان 21]، فنلاحظ الوصف هنا مختلفا عن الوصف في تلك، ففي هذه الوصف أشد: لا يرجون لقاءنا، استكبروا في أنفسهم، عتوا، لذلك ناسبها لفظ "عتوا" دون إبدال، وفي الأولى لم يكن الوصف أشد فناسبه "عتيا" بالإبدال إلى ما هو أخفّ وأسهل، ونتيجة لذلك فالإبدال دلالته الإشارة إلى الوصف الأخف[24].

خاتمة:

بعد رحلة البحث هذه في موضوع التناسب الصوتي ودلالاته في الآية القرآنية نخلص إلى جملة من النتائج نوردها كما يلي:

ـ يقع التناسب في القرآن على مستويات عديدة، ومن أبرزها المستوى الصوتي، إذ تتناسب الأصوات المتجاورة تناسبا بديعا، وتتسق فيما بينها بما لا يتفق لبشر مهما أوتي من قوة الفصاحة والبيان.

ـ مظاهر التناسب الصوتي متعددة، ومنها أن يقع التخفيف في اللفظ، والتيسير في النطق، ومنها أن يقع التجانس في الأصوات أو تكرارها، بما يحدث نغما صوتيا أو جرسا موسيقيا، ومنها أن تنسجم الفواصل وتتناسق بما يشبه السجع البديع.

ـ للتناسب الصوتي أكثر من فائدة، فهو إلى جانب ما يفيده من التخفيف أو انسجام الفواصل، يقدم فائدة دلالية مضافة إلى الفائدة الأصل، أي أن للتناسب الصوتي فوائد لفظية وأخرى دلالية.

ـ اجتهد علماؤنا القدامى في إبراز مظاهر التناسب، وسعى بعضهم إلى استنباط الدلالات من ذلك التناسب، ومن أهم مَن عُني بهذا العمل الإمام المفسر برهان الدين البقاعي، ومن المحدثين الدكتور فاضل صالح السامرائي.

الهوامش:

[1] ابن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، (د ت)، ص162.
[2] يُنظر: ابن قيم الجوزية، التفسير القيم للإمام ابن القيم، تح: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، (دون ت)، ص205 وما بعدها.
[3] ينظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب، دار القلم، دمشق، ط02، 1993م، ص422.
[4] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط16، 2002م، ص91، 92.
[5] يُنظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط02، 1999م، ص159.
[6] محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، مج 19، ص 152.
[7] الزمخشري، الكشاف، مكتبة العبيكان، الرياض، ط01، 1998م، ج04، ص400.
[8] أحمد بن البناء المراكشي، عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1990م، ص32.
[9] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، ط04، 2009م، ص766.
[10] الكشاف، ج01، ص670.
[11] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض، ط01، 1999م، مج03، ص247.
[12] أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، القاهرة، 1976م، مج02، ص1257.
[13] الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت)، ج29، ص153.
[14] يُنظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت)، ج21، ص135.
[15] بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، (د ت)، ج01، ص61.
[16] محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط04، 1996م، ص361.
[17] البرهان في علوم القرآن، ج01، ص61.
[18] يُنظر: التحرير والتنوير، ج30، ص515.
[19] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج22، ص224.
[20] جمال محمود أبو حسان، الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط01، 2010م، ص202.
[21] فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار، عمان، (د ت)، ص37.
[22] أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت،ط01، 1988م، ج03، ص125.
[23] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ت)، مادة (ب ك ك)، ج10، ص402.
[24] يُنظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص60.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم
1- أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط02، 1999م.
2- الأصفهاني (الراغب)، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، ط04، 2009م.
3- الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).
4- البقاعي (برهان الدين)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت).
5- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، دار الكتب المصرية، (د ت).
6- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، سر صناعة الإعراب، دار القلم، دمشق، ط02، 1993م.
7- جمال محمود أبو حسان، الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط01، 2010م.
8- الزّجّاج (أبو إسحاق)، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت،ط01، 1988م.
9- الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، (د ت).
10- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر جار الله)، الكشاف، مكتبة العبيكان، الرياض، ط01، 1998م.
11- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط16، 2002م.
12- ابن عاشور (محمد الطاهر)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
13- العكبري (أبو البقاء)، التبيان في إعراب القرآن، القاهرة، 1976م.
14- فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار، عمان، (د ت).
15- ابن قيم الجوزية، التفسير القيم للإمام ابن القيم، تح: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، (دون ت).
16- ابن كثير(أبو الفداء إسماعيل بن عمر)،، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض، ط01، 1999م.
17- محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط04، 1996م.
18- المراكشي (أحمد بن البناء)، عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1990م.
19- ابن منظور (محمد بن مكرم)،لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ت).